المحاضرة رقم 1+2

مفهوم الأدب الهامشي

(من الأدب المركزي المؤسسي إلى الأدب الهامشي)

عناصر المحاضرة
أولا . مصطلح الهامش
ثانيا . مصطلح المركز
ثالثا . التهميش وبروز أدب المهمشين
رابعا.. أدب الهامش أو المهمش عند الغرب

أولا . مصطلح الهامش : لابد أن نعي بداية أن هناك صلة وثيقة بين الإقصاء وأدب الهامش ؛ حيث إن الذات المهمشة هي ذات مقصاة من المركز ، والعلاقة بالضرورة بين المركز والهامش هي علاقة جدلية ، بل إن أدب الهامش سيكون دائما في حالة ضدية صراعية مع المركز ، بوصف هذا الأخير هو المهيمن والمسيطر، ويختلف مفهوم الهامش بين (الهامش السياسي و الإيديولوجي والاجتماعي ، والثقافي ، والاقتصادي، والهامش الديني) .

نشير كذلك إلى بعض الفروقات الدقيقة بين أدب الهامش والأدب الهامشي والأدب المهمش ، وإن كنا نرى أن جميعها يلحقها فعل واحد هو (الإقصاء)،يفضي الحديث عن **أدب هامشي** وجود أدب آخر مركزي هو الأدب المهيمن الذي يحظى بالصدارة والموثوقية لدى السلطة المؤسساتية (السياسية والثقافية والدينية) ؛ أي يفترض أن هذا الأدب المركزي قد خضع للمعيارية المؤسساتية ، أما **أدب الهامش** فهو أدب يعبر عن فئة مهمشة مسحوقة الحقوق في المجتمع؛ أي فئة تقبع على هامش الحياة ، يلغي المركز فعاليتها بتغييبها (تعيش الفقر والتسول وظروف اجتماعية قاسية)في

مقابل فئة أخرى مسيطرة يعود إليها القرار (قرار الإقصاء) ، تهيمن بشكل مطلق ، فيكون الأدب هو الفضاء الذي تبرز فيه فئة المهمشين .

في حين إن **الأدب المهمش** هو الأدب الذي يستبعد وينف ضمن المحظور بسبب لغته ومواضيعه المحظورة التي ترى المؤسسة الثقافية أنه أدب غير لائق ،يعمل على كسر قداسة اللغة الأكاديمية أو كسر كثير من القيم الأخلاقية التي ترى السلطة المؤسساتية بقداستها ، كما أنه أدب يخرج عن المعايير السائدة في الكتابة (المعايير التقليدية) .ويمكن بوجهة تقريبية وفق ما أشار (حسن بحراوي) تحديد «كتابة الهامش استنادا إلى مصطلحات نظرية التلقي بوصفها تلك الكتابة التي تنزاح عن أفق انتظار القارئ النموذجي أو المثالي ؛ أي تخالف ما يتوقعه من تكريس للقيم الأدبية السائدة ومسايرة للمعيار الأخلاقي الذي تتداوله الآداب و تعلي من شأنه»

ثانيا . مصطلح المركز:

1. **المركز . سياسيا:** «يشير إلى الدول الكبرى التي تمثل محور التفاعلات السياسية في النظام الإقليمي، والتي تشارك في الجزء الأكثر كثافة من هذه التفاعلات، وتحدد من خلال طبيعة المناخ السياسي السائد في النظام، أما دول الأطراف فهي تلك الدول الأعضاء في النظام ولكنها لا تتدخل في تفاعلات مكثفة مع بقية دول النظام لاعتبارات جغرافية أو سياسية»،

2. **المركز . اقتصاديا:** «يتمثل المركز الاقتصادي في الدول الصناعية الكبرى التي تملك التكنولوجيا والتصنيع والإنتاج، وهي المتقدمة في جميع المجالات يقول راؤول بريش: الاقتصاد العالمي الحر ينقسم إلى دول المركز، الدول الصناعية البالغة التقدم في أوروبا الغربية المتحدة واليابان... وتقوم هذه الأخيرة بتصدير سلعة مصنعة ويعتبر التقدم التقني الذي يسمح بتزايد معدلاتها الإنتاجية».

3. **المركز . اجتماعيا:** يستخدم مصطلح المركز الاجتماعي للدلالة على : « نفوذ الشخص في مجتمعه فيقال إنه صاحب منزلة رفيعة أو على حد قول ابن خلدون قد يتساوى في المنزلة كل من انتهى على خدمته؛أي السلطان ومصدر الدخل والتعليم والعمر والجنس والدين والأصول والمعرفة»،

4. **المركز. أدبيا:** يعرف بأنه " أدب مؤسسة، يكتبه كتاب من صنع المؤسسة السياسية أو الدينية النافذة في ذلك العصر للترويج أو الدعاية لها ولها وتبرير وجودها، فهو أدب تابع للمؤسسة'،

ثالثا . التهميش وبروز أدب المهمشين:

لم تكن ظاهرة التهميش بجديدة في المجتمعات فقد «كان السود في مجتمع ما قبل الإسلام يعانون من التهميش والتحقير والازدراء بصورة كبيرة ، ويرجع ذلك إلى إيمان المجتمع بتباين الأعراق البشرية واختلافها إذ كان الأبيض يؤمن بأن عرقه (سام) لذلك فهو أرقى الأعراق و أسماها ، أما نظرته إلى العرق (الحامي) فكانت نظرة ازدراء وتحقير وإقصاء وتهميش ، وذلك بسبب مرجعية تاريخية سحيقة القدم وهي قصة النبي نوح (عليه السلام)..أما السبب الآخر الذي ساعد على حدة تهميش ماقبل الإسلام لأصحاب العرق الحامي (السود) فيعود إلى طبيعة ذلك المجتمع القبلي وإيمانه العميق بالعصبية القبلية »

نشير كذلك إلى أن أبرز ظاهرة تعكس حالة التمرد والخروج على أعراف القبلية والتعرض إلى النبذ والتهميش كانت مع الشعراء الصعاليك ؛ ذلك أن «الشاعر الصعلوك بدأ بمخالفة شاعر القبيلة في بناء القصيدة وطبعتها طولا وقصرا ، وهو يعلم أن ذلك مرفوض عند القبيلة المركز ،إن هذه المخالفة مقصودة بالاختيار ، وهي رد فعل على فعل القبيلة بتهميشه و الاستغاء عنه» ،لقد تشكل المجتمع قبل الإسلام وفق الطبقة ؛حيث كانت هناك طبقات ثلاث مهيمنة ؛هي طبقة زعماء القبائل وطبقة الملوك وطبقة الأغنياء والتجار ، أما الطبقة الرابعة المهمشة اقتصاديا واجتماعيا فهي طبقة الفقراء الصعاليك الذي تصعلكوا نتيجة الهيمنة التي تمارس عليهم إحدى الطبقات ، أو جميعها

أما في التراث الإسلامي «فتتخذ الكتابة صورتين مختلفتين، الصورة الأولى تشكلها الكتابة المركزية أو الكتابة الرسمية، وهي الكتابة التي تنتج في حضن السياسة الرسمية، وتكون على وفاق مع الجهاز الحاكم، ومع مؤسساته الإعلامية والتنظيمية والإدارية، وترتبط بالقوى السياسية والاجتماعية المتمكنة من وسائل السلطة والمقربة من الحاكم، تنطق بلسانه وتعبر عن تطلعاته وتخدم مصالحه، وتحاول تلميع صورته، فهي تعبر بصدق عن إرادة الحاكم الرسمي، سعياً نحو الحفاظ على قداسته، وبحثاً له عن مشروعيته في الاستمرار، بغض النظر عن شرعيته أو لا شرعيته» .

رابعا.. أدب الهامش أو المهمش عند الغرب:

تعدُّ دراسات التابع من أهم الاتجاهات الفكرية الأكاديمية في العلوم الاجتماعية ، هي « اتجاه أكاديمي ساد في أوساط المؤرخين المعنيين بتاريخ بنية القارة الهندية ، المهتمين بدراسة التابع ؛ أي كل الدين ليس لديهم أي تاريخ مكتوب أو رسمي أو معروف مثل الفلاحين والعمال والفقراء،أو باختصار هؤلاء الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا وإضافة إلى هؤلاء يمكن أن يشمل مصطلح التابع النساء واللاجئين والمثليين، وغيرهم من الفئات المهشمة ،التي قلما يتناولها التاريخ الرسمي » وتهدف دراسات

التابعSubaltern Studies بالأساس «إلى إعطاء فرصة للتابعين بغية التعبير عن أنفسهم وتجاربهم وأدوارهم في التاريخ، وقد بدأ المؤرخون الهنود العاملون في الجامعات الهندية والغربية هذه الحركة في مطلع الثمانينيات ، وكان الغرض منها إعادة كتابة تاريخ الهند في فترتي الاستعمار و ما بعد الاستعمار ، منطلقهم فكرة أساسية هي أنَّ النمط السائد عند كتابة تاريخ الهند نمط نخبوي ؛ إذ يهتم بدراسة النخبة و يهمل التابعين،سواء من قبل المؤرخين الإنجليز الذي كانوا مرتبطين بالسلطة الاستعمارية، أو المؤرخين الهنود الذين ينتمون إلى النخبة ».

يعود مصطلح التابع أو المهمش إلى "أنطونيو غرامشي"Antonio Gramsci ليشير إلى الجماعات التي تحت هيمنة الطبقات الحاكمة داخل المجتمع وبما أنَّ تاريخ الطبقات الحاكمة يتحقق في إطار الدولة ، والتاريخ من هذا المنطلق هو تاريخ الطبقات الدول والجماعات المهيمنة، فقد كان "غرامشي" معنيا بكتابة تأريخ الطبقات المهشمة، وقد زعم أن تاريخ الطبقات المهشمة لا يقل تعقيدا عن تاريخ الطبقات المهيمنة رغم أنَّ تاريخ الأخيرة هو الذي يُعتدُّ به بوصفه التاريخ الرسمي ، بالإضافة إلى أنّ الفئة المهمشة غير قادرة على تمثيل نفسها بسبب السلطة المؤسساتية والجماعات الحاكمة التي تخضع أنشطتهم لإرادتها».

إنَّ الغاية «من مشروع دراسات المهمشين /التابعين إصلاح اختلال التوازن الذي حدث في العمل الأكاديمي بفعل الجنوح نحو التركيز على طبقة النخبة وثقافة النخبة في التأريخ لجنوب آسيا ، ومن منطلق إدراكها أنَّ التبعية لا يمكن فهمها سوى في علاقاتها الثنائية مع الهيمنة»

يحدث التهميش كذلك بسبب العرق ؛ حيث يوظف مصطلح العرق لتصنيف البشر إلى مجموعات متمايزة جسمانيا بيولوجيا ووراثيا، وتفترض فكرة العرق ،أنَّ البشرية تنقسم إلى أنواع طبيعية لا تتبدّل يمكن التعرف عليها استنادا إلى الملامح الجسمانية التي تنتقل "عبر الدم"وتسمح للتمييز بين الأعراق "النقية"و "المختلطة"، بالإضافة إلى أنَّ المصطلح يوحي ضمنيا بأنَّ السلوك العقلي والأخلاقي للبشر ،إضافة إلى الشخصية والأفكار والقدرات الفردية ، يمكن أن يرتبط بأصولهم العرقية ،وإنّ معرفة هذا الأصل العرقي يمنحنا تفسيرا مُرضيا للسلوك » والعرق بحسب ما ورد في الموسوعة الثقافية هو نمط من تصنيف البشر يميز بينهم على أساس الخواص البدنية (كلون البشرة وملامح الوجه) التي يدعى أنّها تنشأ عن الوراثة الجينية ، والمشكلة الأساسية في نمط التصنيف المذكور تكمن في أنَّ عمليات الاختيار المتعلقة بما ينبغي أن يعدَّ من هذه الصفات المميزة (عرقيا) ومن ثم يعدُّ طبيعيا (بمعنى أنه ليس ثقافيا) هي في حد ذاتها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود معايير ثقافية خاصة بما يحدّد فارقا ما باعتباره (عرقيا) بالأساس ،ويستتبع ذلك أنه ربما تكون المقاييس المستخدمة في التفرقة بين

ما تسمى (أعرقا) قد اكتسبت مكانتها والاعتراف بها نتيجة لعوامل أخرى لها بعد اجتماعي أساسا ومرتبطة بقضية القوة وقضية التصور أو التمثيل وهي قضايا تحكمها الاعتبارات الاجتماعية»

بصورة أخرى إن ما ينسب من صفات للذات المستعمَرة ويزعم أنها موضوعية هي محصلة ناتجة عن رغبة المستَعمِر الأوروبي في تفسير أو تصوير الذات المستعمَرة بغية السيطرة والهيمنة .لذلك ينتج ما يصطلح عليه (الصورة النمطية)، ويفصح كذلك عن وجود نزعة عرقية في تشكيل صورة الآخر بالإضافة إلى ذلك إنَّ دلالة النزعة العرقية لا تنحصر « في التفرقة العدائية ضد شعبٍ ما ، سواء تمت عن طريق النظم ، أو الإيديولوجيات ، أو المعايير والأعراف السائدة في مجتمع معين ، أم عن أي طريق آخر، بل هي تتسع لمجالات أخرى .فالإحساس بالذات لدى ضحايا هذا التعصب العرقي يتأثر نتيجة لهذا ، وقد تصدى لذلك إدوارد سعيد الذي درس نشأة الهوية العرقية في سياق النزعة الاستعمارية الأوروبية وما ترتب عنها من أثار، كما تناول فرانز فانون الذي تصدى في كتابه بشرة (بشرة سمراء وأقنعة بيضاء ،1953) للكشف عن التأثير الضار الذي أحدثته النزعة الاستعمارية في صورة الذات لدى الرعايا الذين خضعوا للاستعمار».

ونشير كذلك إلى أن مفهوم الهامشية قد تبلور في علم الاجتماع الغربي المعاصر ، إلا أن هذا لا يعني غياب ظاهرة التهميش في أنماط المجتمعات القديمة كما لا يعني أن علماء الاجتماع الكلاسيكي أمثال (دور كايم ، وماركس فيبر ، وكارل ماركس) لم يتحدثوا عن الهامشية والهامشيين لعدم وجودها في مجتمعاتهم ، ومن غير الصحيح الظن بأن ظاهرة التهميش ارتبطت بحركة التصنيع في أوروبا وما شهده الغرب من تحولات ، إن ظاهرة الهامشية كانت موجودة منذ أقدم العصور وفي كل فترات التاريخ»

مراجع المحاضرة :

د. روفيا بوغنوط مادة أدب الهامش ٢٠٢١-٢٠٢٢